المجلة السعودية
للعلوم الإنسانية

المجلة السعودية للعلوم الإنسانية
Saudi Journal of Humanities

الإصدار الحادى عشر
المجلد (٤) العدد (٢)
(١- ٢٥) ٢٠٢٦

التـراث المـائي بمدينـة تارودانت و المـناطق المحيطة بها : الإشارات التاريخية و الأركيولوجية

د/ العربي بروان
(محافظ جهوي سابق للتراث الثقافي بجهة سوس ماسة وجهة الدار البيضاء-سطات _المغرب)
تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١٠ مايو ٢٠٢٦ م

الملخص :

سكان منطقة سهل سوس منـذ عـهود قـديمة باستغلال مياه الأودية التي تنحدر من الجبال المجاورة فبـدلوا في ذلك جهودا لتدبـيرها و تنـظـيم استـغلالها وفقـا لمجوعة من الضوابط و التـقنـيات. و سخر من أجل ذلك بناء القناطر على الأودية و مد شبكة من السواقي و حفر الخطارات و إستنباط العيون لسقي الحقول و توريد المواشي و كذلك لتلبية حاجيات مدينة تارودانت بالمياه لمختلف مرافقها. و قد ازدادت أهميتها مع ازدهار زراعة قصب السكر وإدارة أرحية معامل السكر بالمنطقة خلال فترة الحكم السعدي. و لا تزال آثار بعض تلك االمنشآت قائمة و هي تنم عن خبرة عالية في فنون البناء و هندسة المياه و الزراعة بالمنطقة. و قد أكدت تحرياتنا الميدانية أهمية هذه البقايا مع احتمالية وجود بقايا اركيولوجية مهمة لم يتم الكشف عنها بعد مما يستدعي القيام بالمزيد من البحث و التنقيب لفهم سياقها التاريخي و مكوناتها الأثرية.

و نظراً للقيمة التاريخية و الأركـيولوجية لهذا الموروث الثـقافي، الذي كان موضوعاً لظهائر و رسائل سلطانية منذ العصر السعدي وصولاً إلى صدر الدولة العلوية، فإن الحفاظ عليه و حمايته يتطلب تظافر كل الجهود لصيانتها و إعادة الاعتبار لها. فرغم الأهمية التي تكتسـيها هذه البـقايا، فإنها تعاني من الإهمال و الاندثار بسبب عوامل طبيعية و بشرية. لذلك فإن هذه الدراسة هي بمثابة قراءة علمية للمعطيات التاريخية و الأركيولوجية و كذلك للمكونات المعمارية لهذه المواقع الأثرية قد يتم الاعتماد عليها في أي تدخل لترميمها إدماجها في التنمية المجالية للمنطقة.

كلمات مفتاحية:
التراث المائي، تارودانت، ساقية تافلاكت، ساقية المهدية، معامل السكر، تازمورت، أولاد مسعود.

Abstract :

Since ancient times, the inhabitants of Sous basin have focused on harnessing the waters of the rivers flowing down from the neighboring mountains; to this end, they have made efforts to manage and regulate their use in accordance with a set of rules and techniques. To this end, they built aqueducts across the rivers, laid out a network of irrigation channels, dug canals, and tapped springs to irrigate fields, provide water for livestock, and supply the city of Taroudant with water for its various facilities. Its importance grew with the boom in sugarcane cultivation and the management of sugar mills in the region during the Saâdi dynasty.

Given the historical and archaeological value of this hydraulic heritage, which has been the subject of royal decrees and letters from the Saâdi era through to the early days of the Alaouite dynasty, its preservation and protection require a concerted effort to maintain and restore it. Despite of patrimonial potential of these remains, they suffer from neglect and deterioration due to natural and human factors. Therefore, this communication will serve as a scientific analysis of the historical and archaeological data, as well as the architectural components of these archaeological sites, which may be relied upon in any intervention to restore and integrate them into the territorial development.

Keywords:

cultivation, aqueducts, Oulad Sous basin, Taroudant, Hydraulic heritage, sugarcane Messâoud, Tazemourt.

المقدمة :

حاول سكان سوس عبر التاريخ مواجهة مشكل تدبير المياه باستعمال عدة معارف و تقنيات تقليدية، لعبت دورا مهما في تكييف الساكنة المحلية مع ظروف مجالهم الطبيعي. هذه التقنيات و المعارف أصبحت اليوم مهددة بالانقراض مثل نظام السقي بالخطارات و السواقي و المطافي[1] بسبب العصرنة و التحديث و التحولات الاقتصادية و الاجتماعية بالمنطقة.

إهتم سكان المنطقة منذ عهود قديمة باستغلال مياه الخطارات و قنوات السقي و الأودية التي تنحدر من الجبال المجاورة فبدلوا في ذلك جهودا لتنظيم استغلالها على أحسن وجه. فساقوها لتغذية شبكة من السواقي[2] لإدارة أرحية سقي الحقول. من أجل ذلك قاموا بمد قنوات مبنية و محمولة أحيانا فوق الأسوار و القناطر لتصل إلى خزانات و صهاريج لتنظيم الري في الأراضي الصالحة لذلك. و لا تزال آثار بعض تلك الأعمال قائمة و هي تنم عن خبرة عالية في فنون البناء و هندسة المياه و الزراعة بالمنطقة.

و مهما يكن فقد مكنتنا تحرياتنا الميدانية من الوقوف على عدة بقايا من هذا الموروث الثقافي المتفرد الذي ينتشر في مناطق عديدة من سهل سوس و الذي لم ينل حقه بعد في مجال الدراسات التاريخية و الأركيولوجية. و نظرا لوفرة هذه البقايا الأثرية و شساعة النطاق الجغرافي الذي تشمله هذه الدراسة، فإن هذا البحث سوف يهم عدد محدود منها خاصة تلك التي تتواجد بالمجال الترابي لمدينة تارودانت و ضواحيها. هذه الدراسة، التي ترتكز على الوثائق المكتوبة و البحث الميداني، ستكون معززة بخرائط أثرية مفصلة و صور و ذلك حتى نتمكن من مقاربة بعض الإشكاليات المرتبطة بهذا الموروث الثقافي و الوقوف على خصائصه و مميزاته. وللبحث في هذه الإشكاليات قمت بطرح بعض التساؤلات الهامّة حول موضوع البحث والإجابة عليها بالقدر الممكن، وهي كالتالي:

- ماهي أهم المواقع الأثرية المتعلقة بالمنشآت المائية القديمة المتواجدة بمجال الدراسة من خلال المصادر التاريخية ؟ وما هي أهم الوسائل المستعملة في جلب وتوزيع هذه المياه ؟

- كيف ساهمت الأبحاث الأركيولوجية رغم قلتها و التحريات الميدانية في الكشف عن بقايا مهمة من هذا التراث المائي بالمنطقة ؟.

تحديد مجال الدراسة

[1] المطافي و مفرضها مطفية، كما تعرف باسماء أخرى في مناطق أخرى بالمغرب، هي بارة عن صهاريج محفورة في باطن الارض لتخزين مياه الامطار. و تميزت هندستها بوجود مكونات أهمها: فتحة التزويد التي تكون مرتبطة بقناة محفورة و عبرها يتم تزويد المطفية بمياه الأمطار، تم فم المطفية الذي يغلق بباب او صفيحة معدنية أو حجرة كبيرة مسطحة لحماية مياهها من التبخر و التلوث. و منها يتم إستخراج المياه بواسطة دلو للاستعمال المنزلي أو لتوريد المواشي.

[2] كانت تستعمل السواقي للاستفادة من مياه الأنهار والعيون ونقله إلي مسافات أبعد ،حيث كان المزارعون يحفرون السواقي والقنوات لأنها كانت تعتبر من أكثر التقنيات استعمالا في المجال الزراعي. بواسطتها يتم نقل المياه من جبال الاطلس الصغير الكبير إلي الوادي أو البساتين أو المنازل. وجري العرف في بلاد المغرب علي أن الأهالي هم اللذين ينشئون الساقية عند الحاجة إليها بمعني أنهم كانوا يتعاونون فيما بينهم علي تحمل مصاريف إنشاء هذه السواقي وترميمها،غير أن هذه المصاريف كانت تقتصر علي أصحاب المزارع أكثر من غيرهم.

يشكل سهل سوس إمتدادا طبيعيا لإقليم تارودانت و يعتبر من أهم الأحواض المغربية من حيث مساحته و من حيث وارداته المائية. وتتكامل عنده الموارد المائية الحوضية والسطحية مقارنة مع باقي الأحواض الجنوبية الأطلسية. وقد شكلت هذه الموارد المائية منذ القدم قاعدة ومحركا لاقتصاد المنطقة. لكنها اليوم أصبحت تتعرض لضغوط متزايدة ومتنوعة بسبب بروز نظام استعمال مائي جديد.

يقع حوض سوس بين خطي عرض ٢٩ و ٣١ درجة شمالا، وخطي طول ٧ و ١٠ غربا على مساحة تبلغ ٤١٥٠ كلم مربع. يحده شمالا الأطلس الكبير وجنوبا الأطلس الصغير وغربا المحيط الأطلسي. و يشمل واد سوس، الذي يقوم بتصريف الحوض السفحي المعروف باسمه، شبكة هيدروليكية منظمة تنطلق روافدها الأساسية من الأطلس الكبير، أما روافد الأطلس الصغير فإنها ضعيفة الأهمية. وتعتبر الفرشة المائية لسوس أهم فرشة باطنية بالمغرب، يتراوح عمقها بين ١٥٠ متر بين أرازان و تارودانت و ٥٠٠ متر في سافلة أولاد تايمة، ويزداد عمقها كلما ابتعدنا عن مجرى واد سوس. و ينحدر الجريان العام من الشرق إلى الغرب، ويختلف حجم الفرشة المائية من العالية إلى السافلة[٣].

هذا الغنى المائي شكل عنصر جذب واستقرار بشري منذ القدم[٤] استطاع أن يشكل حوله نظام استعمال محكم سخر لاستغلال الموارد المائية الجوفية والسطحية ما تزال معالمه قائمة إلى اليوم. وقد استطاع الإنسان السوسي أن يحافظ على توازنات هذا الوسط عن طريق استعمال تقنيات ري ملائمة تأخذ هشاشة البيئة و قلة الموارد المائية بعين ألاعتبار، الأمر الذي مكن المنطقة من المساهمة في تطوير إقتصاد البلاد و ازدهار حضارتها.

I. التراث المائي بسهل سوس من خلال المصادر التاريخية

إذا كانت المصادر التاريخية لإقليم سوس خلال القرن ٤ هـ/١٠م لا تمدنا بمعلومات مفصلة حول الأشغال والمنشآت الهيدروليكية بهذه المنطقة، فإنه كانت به حواضر كبرى مزدهرة مثل تارودانت و إيكلي و تيوت و تامدولت وتيدسي التي ذكرها حسن الوزان في كتابه "*وصف إفريقيا* " عندما زارها سنة ٩٢٠ هجرية /١٥١٥م ، أنها مدينة كبيرة تسكنها ٤٠٠٠ أسرة ،وهي منطقة خصبة ومنتجة للحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة وفيها تجار يتعاملون مع السودان[٥]. وتعتبر هذه المدينة مهد الدولة السعدية كانت عاصمتهم ألأولى، قبل أن تتحول تارودانت إلى

[٣] يكون وادي سوس حوضا سفحيا واسعا يمتد بين اعراف الاطلسين الكبير و الصغير و الساحل الاطلنتي على مساحة تقدر ب ١٦١٠٠ كلم مربع. و رغم موقعه داخل المجال الجاف فإنه ظل يلعب دورا اقتصاديا رائدا و يعرف توسعا عمرانيا منذ القديم.

[٤] من الناحية البشرية سكنت المنطقة قبائل الامازيغ من لمطة و جزولة مصمودة منذ اقدم العهود، و انضافت اليها القبائل العربية الهلالية من بني معقل الحسانية الشبانية، و ذلك منذ أواخر العصر الموحدي في منتصف القرن السابع الهجري.

[٥] الوزان الفاسي الحسن بن محمد،وصف إفريقيا، ج ٢، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م. ص ٨٩.

العاصمة ثم بعد ذلك مدينة مراكش. وكان السعديون قد خصصوا حقولا شاسعة في سوس لزراعة قصب السكر بالمنطقة الممتدة بين تيدسي وتازمورت وأولاد مسعود بضواحي تارودانت، وأنشئوا معامل ضخمة لتصفية وصناعة السكر هناك. و من المؤكد أن هذه الحواضر كانت ربما مجهزة بمصادر مائية متنوعة لري حقول قصب السكر و لتوفير حاجيات سكانها من المياه.

و قد كان إبن حوقل أول من أشار إلى زراعة هذه المادة بالسوس الأقصى خلال القرن العاشر الميلادي[٦]. و هذا ما أكده من بعده البكري حيث قال " إن الذي جلب الساقية إلى مدينة السوس هو عبد الرحمان بن مروان"[٧]. و المقصود هنا بمدينة السوس تارودانت. أما عبد الرحمان بن مروان فهو عم مروان آخر خلفاء الدولة الأموية. هذه المعطيات تؤكد لنا أن زراعة قصب السكر بالسوس كانت منتشرة بالمنطقة منذ زمن بعيد واستمرت زراعتها حتى بداية القرن السادس عشر.

لذلك لم تخرج هذه المدينة عن خصوصيات بناء المدن و الحواضر الكبرى كما أكد ذلك إبن خلدون بقوله " و أما جلب المنافع و المرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء، بأن يكون البلد على نهر أو بإزاء عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء و هي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة " [٨]. و تبعا لذلك فإنه قلما نجد مصدرا أو مرجعا يتحدث عن تارودانت دون أن يتحدث عن الوادي الذي أسست على ضفافه " وادي سوس" و هذا ما جعل إسم المدينة يرتبط بالوادي و بالماء. هذا الوادي بروافده عمل على توفير شبكة مائية كبيرة شيدت بطريقة هندسية متقنة سخرت بشكل كبير في المجال الزراعي و بالخصوص زراعة قصب السكر.

وقد عرفت مدينة تارودانت كذلك بحاضرة السوس أو مدينة السوس[٩] كما عرفت في الكتابات القديمة باسم Vala[١٠]، وهو إسم يدل على أن المدينة كانت على علاقة مع شعوب البحر الأبيض المتوسط، و قد تم تشييدها حسب رواية الحسن الوزان من طرف الافارقة القدماء[١١]. و قد سماها إبن أبي زرع[١٢] باسم رودانة بعد أن تم فتحها من طرف يوسف بن تاشفين.

---

[٦] إبن حوقل النصيبي أبو القاسم(ت. ٣٦٧ ه)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،١٩٩٦ م.ص ٩١.

[٧] البكري أبي عبيد(ت. ٤٨٧ ه)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ.ص١٦١

[٨] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون " العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، طبعة اولى، بيروت ١٩٩٢، ج ١، ص ٣٧١.

[9] Meunié J. Le Maroc saharien des origines à 1670, éd.KILINCKSIECK, T.1. p. 276

[10] Godard I. Description et histoire du Maroc, éd. Paris-Madrid d'Alger 1860, T.I. p. 78

[١١] الحسن الوزان، المصدر السابق ج.١ صفحة ٩٣.

[١٢] المراكشي، محييبي الدين محمد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق و تعليف محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي. طبعة الدار البيضاء ١٩٧٨ (ط ٧), ص.١١٢.

وهنا كذلك لابد أن نشير إلى الدور الذي قام به المختار السوسي و الإطلاع على مجموعة من الوثائق ونشرها خاصة في كتابه "المعسول" و"خلال جزولة". وقد بلغ هذا الإعداد الأوج على عهد السعديين حينما تدخلت الدولة لإنجاز نظام هيد روليكي متكامل وجه لتعبئة المياه ونقلها قصد سقي حقول قصب السكر بالمنطقة.

من الناحية الاقتصادية فإن معظم الجغرافيين يصنفون مدينة تارودانت كمجال خصب يضم حقولا زراعية متنوعة على رأسها زراعة قصب السكر. و في هذا الصدد ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن منها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب و الأندلس و إفريقية حيث قال " وعلى هذا النهر (أي وادي سوس) قريةٌ كبيرةٌ جدا تعرف بتارودانت وهي أكثر بلاد الله قصب سكر، وفيها معاصر السكر كثيرة، وهذا البلد أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات، ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية وهو المشهور بالطبرزد المذكور في كتب الطب "[١٣]. و في نفس الإطار يخبرنا إبن عذاري المراكشي أن "ماء تلك الأنهار ينساب كأنه الكوثر، وناهيك من واد ينعقد من مائه السكر، قد صفا زلالا، وزهت به تلك البلاد جمالا، وحديث هذا الوادي في خصبه أكثر من أن يحصى، فإنه كله روضة رائقة وبهجة فائقة "[١٤].

و إجمالا، فإن زراعة القصب بالمناطق الخصبة بهذا السهل كانت تستلزم بناء المصانع و إدخال تقنيات حديثة لجلب المياه ليس فقط لإنجاح المشروع الاقتصادي بالمنطقة بل كذلك لإنجاح المشروع السياسي للدولة السعدية منذ تأسيسها. و لهذا الغرض تم توسيع المساحات حيث بلغت حوالي ١٥,٠٠٠هكتارا و اصطصلاح الأراضي الخصبة المتواجدة على ضفاف واد سوس خاصة بكل من ايكلي، وتييوت، وتازمورت، وتدسي[١٥]. هذا المشروع استلزم كذلك مد السواقي و حفر الخطارات لجر المياه الكافية و تخزينها في خزانات كبيرة لسقي هذه الأراضي الشاسعة و تحريك العجلات المائية بمعامل صناعة السكر.

II. **السواقي القديمة**

يتوفر حوض سوس على تراث ثقافي مادي و غير مادي و طبيعي متنوع يشهد على غنى تاريخ و حضارة هذه المنطقة كما تشهد على ذلك المعالم التاريخية و المواقع الأركيولوجية التي ما تزال تقاوم الاندثار بمختلف أشكاله إلى يومنا هذا. و من بين هذه المآثر التاريخية نذكر خاصة السواقي القديمة و الخطارات التي ارتبط وجودها

---

[١٣] مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة و المدينة و مصر و بلاد المغرب، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥ص ٢١٢.

[١٤] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق محمد زنيبر و آخرون، طبعة بيروت ١٩٨٥. دار الغرب الاسلامي (٨/٥٩٤).

[15] Berthier Paul, “L’aqueduc de l’oued Ouaar et le bassin des Gaba à Taroudant.” Hespéris-Tamuda IV, 1963,193-213. p.١٨٦.

بالمنطقة بمعامل قصب السكر و بسقي الحقول و تزويد المرافق المختلفة للمدينة القديمة بالماء. بقايا هذه المنشآت المائية القديمة ما تزال قائمة إلى اليوم رغم العوامل الطبيعية والبشرية.

أ- ساقية تافلاكت

ورد ذكرها تحت إسم "*تفلقت* " في ثلاث ظهائر سلطانية ٩٦٥ هـ و ٩٨٢ هـ و ٩٩٢ هـ وأربع محررات إشهاد عدلي. تأخذ مجراها من وادي سوس شرق مدينة تارودانت بمقربة من فريجة و تسير في اتجاه المدينة و تدخل إليها من جهة الشمال عند باب الخميس، و بعد أن تخترق حقولها، تغادرها من الشمال الغربي عند باب أولاد بنونة فتسير بجوار مجرى الوادي الواعر إلى دوار الطالعة بالكلالشا فيكون طولها حوالي ٢٠ كلم. و من أجل نقل المياه إلى الضفة الأخرى من الوادي كان من الضروري بناء قناة محمولة على هذا الوادي في اتجاه دوار الصهريج حيث توجد هناك آثار صهريج كبير مستطيل الشكل كان يستعمل لتجميع المياه المخصصة للسقي[١٦].

في أول الأمر كانت هذه الساقية محمولة فوق خمسة أقواس[١٧] كما يؤكد ذلك M. De Segonzac أثناء زيارته للمنطقة سنة ١٨٩٩ لم يبقى منها اليوم إلا ثلاثة بطول يبلغ حوالي ١٠٠ متر و بعلو يتراوح بين ١٥ و ٢٠ متر. و قد جاء بناء هذه القناة المحمولة في إطار مشروع الدولة السعدية للرفع من المساحات المسقية المخصصة لزراعة قصب السكر بالمنطقة.

و من المصادر التاريخية التي تحدثت عن ساقية تافلاكت نجد على سبيل المثال كتاب "البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب" لابن عذاري حيث قال " و شاهدت (الناس) وصفا حفيلا و بلدا خصيبا، وذلكم أن ساقية كبيرة ارتفعت من وادي سوس إلى تارودانت و عليها العمارة و السكنى و الرياضات، و فيها من الأشجار أنواع و أتصل هذا المجموع بعضه ببعض في بسيط معتدل الهاء فسيح الأرجاء ..."[١٨].

16 Berthier, Paul, op.cit.p.204.
17 Berthier, Paul, ibidem. p.194.

١٨ إبن عذاري، المصدر السابق ص ٥٦

لوحة ١ : بقايا اثرية لساقية تافلاكت على الواد الواعر

و مما ينبغي الإشارة اليه هو أن بعض السواقي أو المجاري المائية الطويلة قد لا تحمل نفس الإسم من منبعها الحقيقي إلى مصبها. و هو ما ينطبق على ساقية فريجة و يطلق هذا الإسم على الجزء الممتد من المنبع، وبعد إختراق الساقية لسور تارودانت جهة باب الخميس، تأخذ تسمية جديدة هي "*تافلاكت*"[١٩] ليتفرع منها عدد من المصارف المائية الثانوية لسقي العراصي والبساتين و تزويد السقايات و المساجد و الحمامات بالماء داخل المدينة.

و نظرا للأضرار التي تلحقها عقب كل فيضانات و ما يترتب عن ذلك من تكاليف أشغال الصيانة، قررت مديرية التجهيز آنداك سنة ١٩٣٧، إنشاء مشروع قناة عصرية، وجرها صعودا إلى مشارف المدينة بصبيب ٢ م مكعب/ثانية تحت إشراف المهندس الفرنسي فيليب أمبروجي Ambroggi Philippe. و تشكل هذه القناة جزء من المصرف القديم لخطارة فريجة التي كانت تزود سواقي مدينة تارودانت بالماء[٢٠]. خلال تحرياتنا الميدانية تم الكشف عن جزء من المسار الأصلي لأحد هذه السواقي و يتعلق الأمر بساقية تافلاكت عند اختراقها لجدار السور التاريخي للمدينة من جهة الشمال بالقرب من باب الخميس و هو أحد الأبواب الخمسة القديمة للمدينة. المجرى المائي يتكون من مصرف إسمنتي في حالة جد متردية حيث أصبح مطرحا للنفايات المنزلية. و حسب اللقاءات التي أجريناها مع بعض الشيوخ و المهتمين بتراث المدينة، فقد أكدوا لنا أن تهيئة مجراها بالإسمنت تم إبان فترة الحماية الفرنسية ما بين سنة ١٩٣٨ و ١٩٤٠[٢١].

---

[١٩] الحسين باحسين، أنظمة السقي بالجنوب المغربي، ص ١٩٩ ط ٢٠١٨ منشورات مركز أكلو للبحث والتوثيق.

[٢٠] تقع قناة فريجة على الضفة اليمنى لوادي سوس، على بعد حوالي عشرة كيلومترات من مدينة تارودانت. و قد تم تنفيذ المرحلة الأولى من مشروع تشغيل القناة في الفترة ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ و ذلك من أجل ري بساتين الزيتون والحدائق. و قد كان يتراوح منسوب تدفقها، قبل أن تجف حاليا، ما بين ٥٠٠ و ١٣٠٠ لتر في الثانية تقريبًا، وذلك وفقًا للفيضانات التي تحدث في مجرى وادي سوس.

[٢١] العربي بروان، تقرير حول تشخيص الحالة المعمارية للسور التاريخي لمدينة تارودانت، ص ٨، مديرية التراث الثقافي، الرباط، ٢٠٢١.

بالإضافة الى كل هذا و عند زيارتنا لحي القصبة المخزنية المتواجدة بشرق المدينة فقد تم الحديث كذلك و لأول مرة عن تواجد ساقية قديمة هناك تسمى بمصرف الأحباس متفرعة من ساقية تافلاكت و كانت هي المزود الرئيسي للقصبة بالماء من الجهة الشمالية الغربية. إلى جانب ساقية تافلاكت، نجد كذلك سواقي أخرى متفرعة عنها لا تقل أهمية من بينها ساقية تاملالت و ساقية ترغونت.

بالنسبة لساقية تملالت كان مجراها يمر بمحاذاة سور القصبة السلطانية لمدينة تارودانت بمحادات ساقية تافلاكت و تتفرع من واد سوس عند نقطة ارتفاع ٢٥٠ م. و بعد أن تخرج الساقية من المدينة من شمال باب تارغونت تستمر في اتجاه الغرب إلى منطقة الكلالشا. و قد ورد إسمها في ظهير واحد لمحمد الشيخ السعدي ٩٦٥ هـ ومحررين و شهادة عدلية[٢٢]. من خلال تحرياتنا تبين لننا أن مسارهاً كان مخفيا خارج الأسوار لأسباب وقائية وأمنية، قبل أن تتحول إلى مجرى مكشوف بمجرد نفاذها إلى داخل الحيز العمراني للمدينة لتغذي شبكة مصرف البلاليع والمرافق الاجتماعية بالمدينة ومنها صبانات فوق الساقية بمفرق الأحباب.

بالنسبة لساقية ترغونت فهي الأخرى ورد ذكرها في شهادة حبسية ٩٨٣ هـ ومحرر نوبة مائية ١٠٠٧ هـ. ينحدر مجراها إلى الجنوب من ساقية تاملالت خارج السورفي المكان المسمى بولبارود، والتي يحتمل أن تكون أخذت تسميتها من الموقع المكاني باب ترغونت. و عندما تصل الى القصبة الزيدانية يصبح إتجاهها شمالي غربي حتى تلتقي بمجرى تاملالت و تافلاكت. يقول المختار السوسي: "و الزيدانية قصبة لا يزال سورها ماثلا، هي منزل زيدان بن إسماعيل لما حاصر أخاه في المدينة" [٢٣]. و تقع هذه القصبة في الجنوب الغربي لتارودانت وسط أجنة الزيتون وحقول الزراعة على بعد حوالي ٣ كيلومترات من المدينة.

ب- ساقية المهدية

تعد من أشهر السواقي التي كانت موجهة بالدرجة الأولى نحو معاصر السكر السعدية المتواجدة بضواحي العاصمة آنداك تارودانت. و قد سميت بهذا الإسم نسبة إلى السلطان السعدي محمد الشيخ المهدي السعدي (-١٥٤٠ ١٥٥٧ م) الذي أمر بإنشائها في أقصى جنوب سهل تارودانت، فجلب إليها عددا من العيون و المجاري المنحدرة خاصة من مناطق (إسندالن) و (أسيف أوفرا) و (أسيف أوكني). و تنحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي على طول يبلغ أكثر من ٨٥ كلم. و بعد تجاوزها لواد أرغن بواسطة قناة محمولة فوق عشرة أقواس ذات أشكال هندسية متنوعة، تتفرع هذه الساقية إلى مجريين: ساقية المهدية الفوقانية و ساقية المهدية التحتانية.

[22] https://sawtalhakika.ma/?p=22816

[٢٣] المختار السوسي، خلال جزولة ، ج ٤، دار الكتب العلمية، ٢٠١٥، ص ١٥٢.

لوحة ٢ : جزء من أقواس واد أرغن التي تحمل ساقية المهدية بالضفة اليسرى لواد سوس (المصدر *(A. Humbert)*

لأولى كانت تغذي القناة الموجهة إلى معمل السكر بأولاد مسعود. أما الثانية فكانت موجهة لسقي مزارع السكر التي في طريقها قبل أن تصب في قناة واد اصداص المتواجد غرب المعمل المذكور. لكن لحد الآن وحسب عدد من الباحثين ليس هناك ما يؤكد أن هذه القناة هي التي كانت مياهها تصل بالفعل إلى معمل السكر بتازمورت الذي يبعد عن معمل أولاد مسعود بحوالي ١٢ كلم غربا.

و تبقى هذه الساقية المحمولة و المتميزة بهندستها الفريدة من نوعها بمنطقة سوس إلى جانب تلك التي تمر فوق الواد الواعر من أهم الشواهد التي ما تزال قائمة إلى اليوم. و تحمل هذه القنطرة فوق عشرة أقواس مبنية بالحجارة الكلسية و الرمل و حصى الوادي و مواد الجير التي تستعمل كمونة عازلة أو للربط. أما علوها فيتراوح بين ثلاثة أمتار و ثلاثة أمتار و نصف. أما عرضها فيصل الى ١,١٥ متر وطول يصل الى ٥٠ متر. و كانت مياه كل ساقية تجمع في السفح بعد خروجها من الجبل ثم تحمل عبر قناة محمولة فوق سور ضخم خفيف الانحدار في اتجاه الغرب يمتد على مسافة ألف متر تقريبا ثم ينتهي بميزاب بعلو يصل إلى أكثر من عشرة أمتار تتساقط منه المياه بقوة لتدير عجلة مائية ضخمة ثم يمر الماء إلى خزان كبير يجمع فيه لاستغلاله في السقي[٢٤].

[٢٤] نشير الى ان هناك قنوات سقوية أخرى بمنطقتي تافلاكت و تاملالت تحمل نفس الاسم (المهدية) تنحدر من الاطلس الكبير.

وقد أعطت هذه الساقية إسمها لأحد دواوير المنطقة فيدعـــى (المهادي) و لعله كان قرية خاصة ببعض العمال من هذه المنطقة. و في هذا الشأن يخبرنا عبد العزيز الفشتالي في حديثه عن مثل هذه التجمعات السكنية التي كانت تقام بجوار معامل السكر" و إذا القيت عصا التسيار بمعصرة منها رأيت مجمع الورى و أول الحشر، و قرية النمل و كورة النحل و مدرج الذر لكثرة ما ضمت من العملة، و حشرت من الخلق، و لا تسأل عن هولها و لغلط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها، و ضخامة أحوالها..."[٢٥]. كان هذا الوصف لمعاصر حاحة و شيشاوة التي أنشاها أحمد المنصور الذهبي لكنه ينطبق أيضا على معاصر سوس التي لا تزال أطلالها قائمة.

ت- ساقية المهدية الفوقانية (أولاد مسعود)

تبعد ببعض الكيلومترات فقط عن واد أرازان على الضفة اليسرى لوادي سوس. و من المحتمل أن يكون هذه الإسم هو نفسه الذي يطلق على أحد الدوارير المتواجد بالشمال الغربي من هذا المركب السكري الذي بـني على مساحة قدرها هكتارين. يجلب إليها الماء من عالية الدير عن طريق ساقية المهدية الفوقانية. رغم حالتها المعمارية المتردية، فإنه ما تزال هناك بقايا قديمة أبرزها السور الذي يحمل الساقية مبني باللوح أو التابوت[٢٦] و الحصى بطول يبلغ حوالي ٧٦٥ مترا و بعلو متدرج يبلغ أقصاه كلما اقترب من "العجلة المائية"، ليصل الى حوالي تسعة أمتار تقريبا عند نهايته. أما الصهريج المائي المتواجد على مقربة من المعمل فتبلغ سعة المائية ٣٦٠٠٠ متر مكعب على مساحة قدرها حوالي هكتارين[٢٧].

[٢٥] عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء، ط. كنون ص ١٨٧.

[٢٦] تبدأ هذه الطريقة بتثبيت تابوت خشبي فوق أساس الجدار و يملأ هذا التابوت بالطين الممزوج بالحجر ثم يذك جيدا و يترك حتى يجف بعد ذلك تزال الألواح الخشبية المكونة للتابوت لتتب في مكان مجاور و تتكرر نفس العملية إلى أن يصل الصور أو الجدار إلى الطول و الارتفاع المطلوبين و يتراوح طول هذه الألواح الخشبية مترين و عرضها حوالي المتر.

[27] Berthier Paul, l'archéologie, source de l'histoire économique. Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc, in Hespéris Tamuda, T. VII, p. 36, 1966

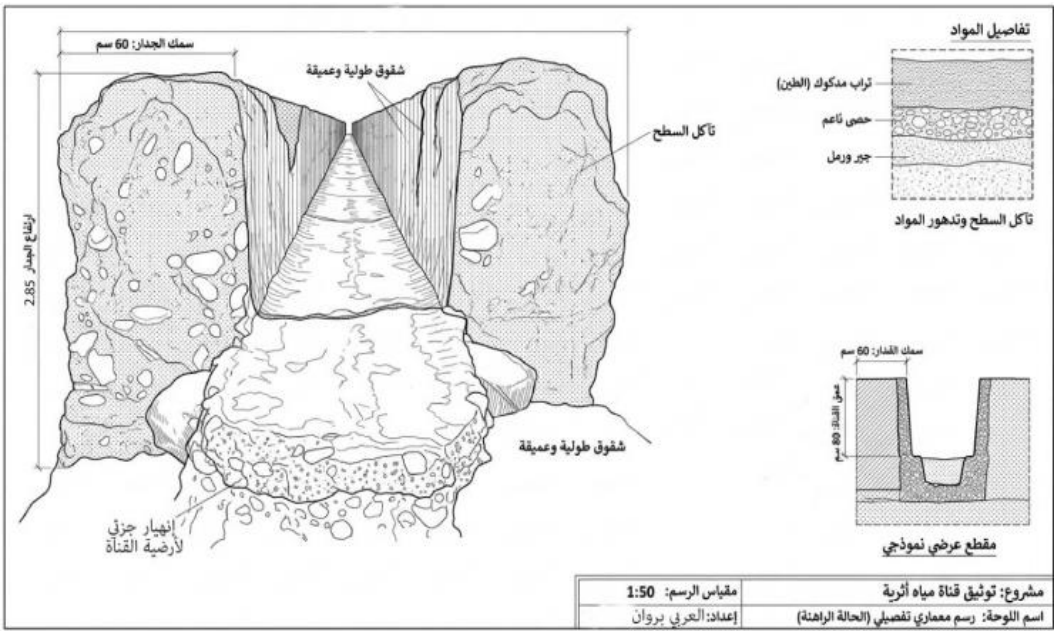

لوحة ٣: رسم تفصيلي لجزء من الحالة المعمارية لساقية المهدية (اولاد مسعود) (المصدر العربي بروان)

ث- ساقية المهدية التحتانية (تازمورت و إيميز)

تقع تازمورت على بعد ١٥ كلم من مدينة تارودانت. ينتمي غالبية سكانها إلى قبيلة كطيوة. فهي أكبر القرى هناك بحيث تضم أكبر عدد من السكان و الذي يتجاوز عددهم الألفين نسمة. وتعرف نموا كبيرا في المجال الفلاحي لكونها تتوفر على أراضي صالحة للزراعة و ثروة مائية هائلة. و قد وصفها المختار السوسي حيث قال " قرية تازمورت كبيرة، ولمسجدها مقام في بعث العلوم، وقد كانت القرية فوق مكانها الحالي بالجبل، قبل أن يستقر قرار السكان في مستقرهم الحالي، وفيها عين ماء خرارة (راس العين) خرجت من وسط الديار ومرت بالمسجد، ثم خرجت بعيدا من القرية، فكان سقيها مجموعة سوداء من حقول الذرة و فيها آلاف من أشجار الزيتون، كما أن إزاء ذلك بياضا لا غرس فيه، تركه أصحابه للزراعة فقط"[٢٨].

هذه القرية يتواجد بها واحد من أهم معامل السكر بالمغرب لكن لم يبقى منه إلا بعض الآثار فقط عبارة عن سور يصل ارتفاعه في بعض الأماكن من ٨ إلى ١٠ أمتار مبني بتقنية اللوح أو التابوت. وفي أعلى السور، الذي يبلغ طوله أزيد من ٢٠٠ متر، توجد ساقية تسميها الساكنة المحلية بساقية المهدية. و تنحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي محادية للسفح عند خط إرتفاع ٢٥٠ متر تقريبا.

[٢٨] محمد المختار السوس، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٤.

و تحيط بهذا السور، كباقي المركبات التي شملتها تحرياتنا الميدانية، و حدات و مرافق صناعية منها ما هو مخصص للطحن و العصر وكذلك أفران الطبخ و التكرير، و إلى جانبها معامل الخزف الطيني الذي تتخد منه القوارير الهرمية المخروطية التي يفرغ فيها السكر لتشكيله و إخراجه في قوالب. و خلال زيارتنا للموقع عثرنا على مخلفات بقايا خزفية التي كانت تصنع منها القوارير الهرمية المخروطية التي يفرغ فيها السكر لتشكيله و إخراجه في قوالب.

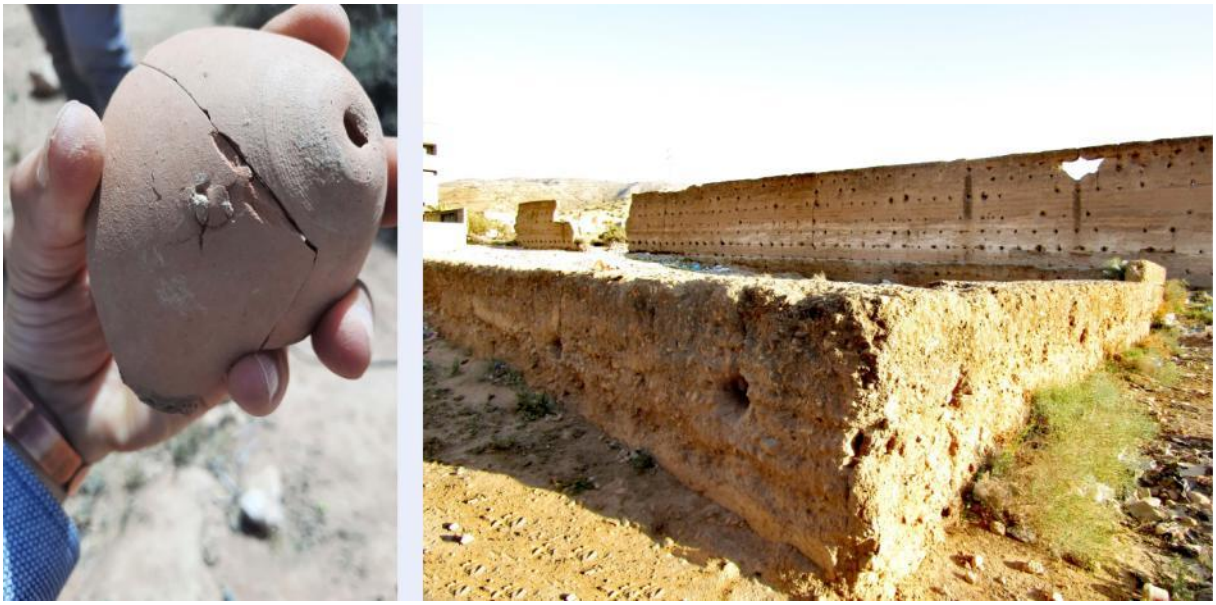

لوحة: على اليمين الصهريج المائي لمعمل السر بتازمورت ١ . على اليسار صورة لجزء من بقايا قوالب السكر 4 بتازمورت ٢ (العربي بروان)

III. نظام السقي بالخطارات

تعد الخطارات من المنشآت المائية القديمة التي عرفتها كثير من الشعوب سواء في آسيا (إيران و أفغانستان و شبه الجزيرة العربية ...) و في أوربا (الأندلس) و في إفريقيا (بلاد المغرب...). و تختلف تسميتها من بلد لآخر. فنجد من أسمائها بالعربية و الأعجمية (الخطارة، الكاظمية، خيراز، فليج، إفلي، شكفة، فكارة...). و تتكون إجمالا من مجموعة من الآبار متصلة في ما بينها عبر مجرى باطني لنقل المياه لمسافات طويلة دون تعرضه للتبخر إلى أن يتم تصريفه الى سطح الأرض لاستعماله في مجالات مختلفة خاصة في المجال الزراعي و توريد المواشي[٢٩].

إلى جانب هذه السواقي السطحية، استعمل أهل سوس كذلك نظام السقي بالخطارات التي ما يزال بعضها يستعمل إلى اليوم. لكن من خلال تحرياتنا الميدانية تبين أن عدد كبير منها لم يبقى له أثر خاصة تلك المتواجدة على

[٢٩] - زروال احمد، " الخطارة" معلة المغرب ، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ج ١١، ص. ٣٧٦٩- ٣٧٧٣، ص. ٣٧٦٩.

الضفة اليمنى من وادي سوس. و من المحتمل أنها كانت تستعمل كذلك لري حقول قصب السكر بالمنطقة خاصة الفترة الممتدة ما بين شهر مارس و أكتوبر حيث تشهد المنطقة خلالها قلة في التساقطات. و بالنسبة للفترة التاريخية التي ظهرت فيها هذه التقنية، يخبرنا الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) أن المهندس الأندلسي المسمى عبيد الله بن يونس هو الذي أشرف على بناء أول مشروع للخطارات بمراكش وأحوازه في عهد يوسف بن تاشفين[٣٠].

و من أقدم الإشارات للخطارات بجنوب بلاد المغرب هي تلك التي ذكرها الشريف الإدريسي عندما تحدث عن مدينتي جرمة و تساوة ببلاد فزان، حيث قال " و هاتان المدينتان يقرب بعضهما من بعض، بينهما نحو مرحلة أو دونهما، وقدرهما في العظم و ثرة العامر سواء، و مياههم من الآبار، و عندهم نخيلات و يزرعون الذرة و الشعير و يسقونهما بالماء نكلا بآلات يسمونها أنجفة، و تسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة"[٣١].

و في هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي يعد من المصادر الأولى خلال الفترة الوسيطية التي تحدثت عن هذه المنشآت المائية بالمغرب الأقصى، حيث أخبرنا أن أول خطارة أنشئت بهذا البلد كانت زمن المرابطين من طرف مهندس قدم الى مدينة مراكش يسمى عبيد الله بن يونس وذلك في عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ -٥٣٧ / ١١٠٧- ١١٤٣ م). فاستنبط هذا المهندس الماء لأهلها وفق طريقة هندسية دقيقة تم وصفها من طرف الإدرسي حيث قال "و مائها يقصد مدينة مراكش، الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس... جاء إلى مراكش في صدر بنائها و ليس فيها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره، فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض، و مر يحفر بتدريج من أرفع الى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان و هو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه ... فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس المهندس، و أعطاه مالا و أثوابا و أكرم مثواه مدة بقائه عنده"[٣٢]

خلال هذه الفترة و حتى نهاية الدولة المرينية، المعطيات المتعلقة باستعمال هذه التقنية قليلة جدا حول منطقة سوس نظرا لاهتمام جل المؤرخين و الجغرافيين بالمدن و الحواضر الكبرى لكن هذا لا ينفي عدم وجود نظام سقوي بالمنطقة.

---

[٣٠] الإدريسي، ابو عبد الله محمد (الشريف الإدريسي) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ١٠٨، تحقيق جماعي تحت اشراف المعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابولي ، ١٩٧٠- ١٩٨٤، نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

[٣١] الإدريسي، المرجع نفسه، ج ١، ص ١١٢.

[٣٢] الإدريسي: المرجع نفسه ج ١، ص ٢٣٣-٢٣٤.

بعد احتلال مدينة اكادير و ماسة من طرف البرتغاليين، فإن جل قبائل سوس هبوا لمساندة السعديين و أعلنوا الجهاد ضد المستعمر. خلال هذه الفترة لم يقتصر الأمر على إصلاح قنواة السقي و تطوير تقنيات الري، بل قامت الدولة السعدية بمد قنوات جديدة و وضعت سياسة مائية متكاملة مرتبطة خاصة بصناعة قصب السكر كما تدل على ذلك البقايا الأثرية لهذه المنشآت الصناعية بالمنطقة. لكن إلى يومنا هذا لا توجد أي وثيقة تاريخية تصف لنا طريقة بناء هذه المنشآت مما يفتح المجال لكل الاحتمالات و التأويلات الممكنة في انتظار إجراء أبحاث أركيولوجية معمقة. للإشارة هذه التقنية كانت تستعمل خلال القرن السادس عشر الميلادي بكل من ماديرا و بلنسيا و جزر الكناري والبرازيل[٣٣].

التحريات الميدانية أظهرت لنا أن معظم الخطارات تتواجد خاصة بالمنطقة الشمالية الشرقية لأولاد برحيل وبالقرب من دوارأرازان حيث تتواجد شبكة جد قديمة من الخطارات من المحتمل جدا أنها كانت تستعمل لجلب المياه لسقي مزارع القصب السكري و الحقول الزراعية بالمنطقة. و من أهم هذه الخطارات نذكر على الخصوص:

أ- مجموعة خطارات أولاد برحيل

تضم هذه المنطقة عدد كبيرمن الخطارات أغلبها يتمركز بالمنطقة الشمالية الشرقية. و تتكون من مجموعة من الآبار تحت أرضية مرتبطة فيما بينها و متباعدة بشكل منظم في خط مستقيم في أغلب الحالات حيث تتراوح هذه المسافة ما بين ١٥ و٢٠ مترا، هذه المسافة بشكل عام تقل كلما اتجهنا من المنبع إلى المصب. وأهم هذه المجموعات نذكر خطارات "أزوكنيا" بطول يبلغ ٣٥٠٠ م. و قد حفرت بشكل متوازي مع خطارات دوار أكودال[٣٤] التي يبلغ طولها حوالي ٢٠٠٠ م وعمق يتراوح بين ٤٥ و ٥٠ مترا، هذا العمق يختلف من منطقة لأخرى. أما بالنسبة للخطارات الأقل طولا فنذكر على سبيل المثال خطارات سيدي أحمد التي يبلغ طولها ٧٠ مترا فقط. على العموم فإن الخطارات المتواجدة بالدير هي الأكثر عمقا و الأكثر طولا.

حاليا المساحة المسقية بواسطة الخطارات بمنطقة أولاد برحيل و نواحيها لا تتجاوز ٨٥٠ هكتارا[٣٥] تتمركز خاصة بمنطقة رأس الواد باولوز وذلك ناتج عن استعمال آبار جماعية مزودة بمضخات ذاتية التشغيل. كما نجد أن بعض الخطارات القديمة التي ما تزال نشطة قد تم تزويدها بهذه المضخات العصرية.

---

33 Berthier, P., et Berthe. J.P., Sur l'histoire sucrière américaine. *Annales Economies, Sociétés, Civilisations*, Paris, 1959, p.135-141.

٣٤ خطارات أكودال (هذه السلسلة من الخطارات أصبحت حاليا جافة)

٣٥ المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بجهة سوس ماسة,

الى جانب هذه الخطارات، منطقة أولاد برحيل تضم مجموعات أخرى لا تقل أهمية مثل مجموعة خطارات أولوز التي تتكون من حوالي ١٠ خطارات، مجموعة خطارات أرازان عددها محدود لكنها توفر صبيبا هاما يتجاوز ١٤٢ ل / ث مما يجعلها تصنف من أهم خطارات حوض سوس[٣٦].

كما نجد سلسلة أخرى من الخطارات التي ترتبط بمجموعة من العيون خاصة بأولاد تايمة و أولاد عيسى و أولاد بوريوس و تدسي وتيوت كما هو موضح في الجدول التالي:

خطارة	x	y	z
عين شواطات	٢٠٥,٦٥	٤١٠,٠٥	٥٤٠
عين جديدة تمازت	٢٠٦	٤٠٦,٠٥	٤٨٥
عين ايت يوسف	٢٠٦,٦	٤٠٦,٠٥	٤٨٠
عين الشيخ	٢٠٧,٧	٤٠٩,٧	٥٣٠
عين داحمان	٢٠٨,٣٥	٤٠٧,٩٥	٥٣٠
عين زليخة	٢١٢,٨	٤٠٦,٩٢	٥٢٠
عين امجكاك	٢١٤,٣	٤٠٦,٥	٥١٥
عين ايت حمو	٢٢٨,٧	٤١٣,٣٥	٦٨٠
عين ايت امبارك	٢٢٩	٤١٢,١	٦٣٥
عين اكداد	٢٣٠,٧٥	٤١٠,٩	٦٥٠
عين بيكوسي	٢٣٢,٢٥	٤١٣,٩	٦٦٥
عين تادارت	٢٠٨,٢٨٠	٤٠٨,٩	٥١٨

المصدر: وكالة الحوض المائي لجهة سوس ماسة (منطقة اولاد برحيل)

و تتجلى أهمية هذه الخطارات في أدوارها التاريخية وفي هندستها المائية الفريدة من نوعها، إذ أن الدولة أولتها أهمية بالغة نظرا لارتباطها بالتصميم التوجيهي للتهيئة المندمجة لمصادر المياه ونظرا لكونها مستهدفة من ضمن الثلاث أهداف لمشروع سد أولوز وذلك لضمان دوام جريانها، رغما عن إحتمال الجفاف، فتتم تغدية الفرشة

[٣٦] حسب وكالة الحوض المائي لسوس ماسة هذه الخطارات كانت موضوع قياسات الصبيب بحوض سوس قبل نضوبها. و يتعلق الأمر بكل من مجموعة خطارات أولوز و أرزان.

المائية التي على مقربة منها، عبر طلقات حقينة السد في سرير الوادي حسب جدول زمني وأحجام معينة مع وضع عتبات لخلق مساحات مائية لتركيز التغذية الاصطناعية.

ب- خطارات الشريط الفيضي لواد سوس بمنطقة أولاد مسعود

تعتبر هذه الخطارات من أقدم الخطارات بالمنطقة ومن المحتمل أنها قد أنشأت خلال الفترة السعدية و ذلك من أجل رفع و تقوية نسبة صبيب السواقي المنبعثة من واد سوس خاصة وأن معظم هذه الخطارات بنيت على ضفاف الوادي و بعمق صغير لا يتجاوز في أغلب الأحيان ١٥ مترا ولا تتوفر على صهاريج لتجميع المياه عكس ما رأيناه في خطارات منطقة أولاد برحيل.

في أغلب الحالات تتوفر شبكة الخطارات السالفة الذكر خاصة عند المصب على صهاريج مختلفة الأحجام لتجميع المياه مثل صهاريج خطارات سيدي موسى و سيدي أحمد التابعتين لدوار أكودال. بعد تجميعها يتم إعادة توزيع هذه المياه لسقي الحقول و المزارع المجاورة أو لتوريد الماشية. هذه الشبكة هي نظام مائي قام بدور محوري في تاريخ المنطقة، باقيا لحد الآن آثارها الشاهدة رغم التهميش و التخريب. على مسار هذه الخطارات تقع مجموعة من الفتحات على شكل آبار صغيرة تسهل عملية مراقبتها وتنقيتها من ألأتربة وكل الأشياء العالقة بها والتي من شأنها أن تقلل نسبة تدفق المياه. تنقل المياه من المرتفعات الى المنخفضات وفق نظام عرفي خاص ينظم عملية توزيع المياه على الحقول.

ت- نظام توزيع و استغلال المياه القديم بمجال الدراسة

تختلف أنظمة السقي التقليدي من منطقة لأخرى بالمغرب. و تعتبر المنشآت المائية ذات الطابع السقوي في أغلب واحات المغرب تقليدية و عرفية، لكونها تعتمد على استغلال هذه المياه على طرق و قواعد عرفية قديمة. كما أن ندرة الماء و أهميته في الاستقرار البشري جعلته ثمينا يستلزم انخراط الكل في حسن تدبيره و احترام أنظمة توزيعه واستغلاله المنبثقة من هذه الأعراف و التقاليد. وعلى هذا الأساس لا يحق لأحد منع صاحبه من الانتفاع من ذلك الماء، حتى و إن كان قليلا، وكل واحد له الحق في صرف مائه حيث يشاء. وتبعا لذلك فقد سئل الونشريسي عن قوم لهم وادي كبيرة فغرسوا عليه أجنة كثيرة، ويحرثون عليها فإن كان الشتاء كثر و إن كان الصيف قل حتى يصل إلى الأسفلين، فأجاب إذا قل الماء يكون الأولين أحق به[٣٧]. وأما الذين رفعوا الساقية من الوادي الجاري في أرضهم، فيكون السقي من الأول إلي الأخير، وإن استغني عليه الأول تركه لمن بعده، وأما بيعه فليس له ذلك لأنه لا يملكه و

[٣٧] الونشريسي آبي العباس أحمد بن يحي(ت 914 .هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1981 ،ج ٨ ،ص ٤٠٢.

إنما يملك الانتفاع به[٣٨]. وهكذا نستخلص بأنه لا يحق لأحد امتلاك مياه الأنهار أو السواقي المجلوب منها، و أن استغلالها و الانتفاع بها يكون للأعالي ثم الأسفلون.

بالنسبة لسهل سوس الذي هو جزء من مجال دراستنا، نجد أن الحقوق المائية بالطرق التقليدية يطغى عليها شكلان أساسيان هما: حق الاستعمال الذي يربط الماء بالأرض وحق الملكية الذي يفصل ملكية الماء عن ملكية الأرض ويجيز بذلك حق تفويت المياه دون أن يربطها بالأرض. كما أنه في حالة تكافؤ الموارد المائية مع الحاجيات فإنه يتم اللجوء لما يسمى ب "النوبة" كما تؤكد ذلك بعض الفتاوى[٣٩]، حيث توزع المياه بالتتابع. في هذه الحالة تكون الحقوق المائية متساوية و يكون الماء مرتبطا بالأرض و لا يسمح بتفويته. و في حالة الخصاص المائي يكون نظام توزيع المياه مرتبط بقانون الملكية الخاصة ولا يرتبط بشكل عام بالأرض. و من تم فإن الحصص المائية لا تكون متساوية.

و إذا ما ظهرت هناك نزاعات أو خلافات يتم اللجوء إلى "الجماعة" التي ينبثق عنها مجلس يعطي لكل ذوي الحقوق حق التصويت بشكل يتناسب مع حصصهم المائية. و يمكن أن يفوض هذا المجلس لشيخ الساقية سلطة الإشراف عن أشغال تجهيز المنشآت المائية أما مهمة مراقبة و توزيع المياه فيشرف عليها " أمزال" الذي يتلقى تعويضا عينيا من الفلاحين مقابل خدماته.

بالنسبة لنظام استغلال مياه الخطارات، فإنها تخضع لقانون "أزرف". وهكذا يعتمد ملاكي الخطارة في توزيع المياه على وحدة قياسية تسمى النوبات التي تعرف محليا ب "تيرام ن وامان" أي الحصة أو النوبة توزع بأداة قياس تعرف ب "تاناست / الطاسة[٤٠]. وقد عرف المختار السوسي في كتابه المعسول تناست / الطاسة بقوله : "و الطاسة إناء صغير مصنوع صنعا خاصا من النحاس، فيثقب ثقبا صغيرا فتجعل في سطل ماء، فيتسرب الماء من الثقب أسفلها شيئا فشيئا حتّى تمتلئ فتغطس في ماء السطل، فهي الطاسة الواحدة...و قد رسم في وسط الطاسة داخلا : النصف والربع بخطوط مستديرة محبوكة الصنع"[٤١].

و يكون المسئول على ذلك "أمغار ن وامان"، حيث يكون المستفيدون عدة قبائل أو كل قبيلة بخطاراتها أو في حالة أخرى يكون عقد إذا كانت قبيلتان تستفيدان من خطارة واحة. أما عملية التناوب في السقي فتكون إما ليلا أو نهارا

---

[٣٨] نفسه، ج ٥، ص ١٣.

[٣٩] القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل ألأحكام، تقديم و تعليق الدكتور محمد بن شريفة، دار الغرب ألإسلامي، لبنان، بيروت ١٩٩٠، الطبعة الأولى ص ١٠٩.

[٤٠] *تناست* عبارة عن إناء مقعر مصنوع من النحاس أسفله فتحة دقيقة يوضع داخل إناء كبير مملوء بالماء فيتسرب الماء إلى داخل "تناست" عبر الفتحة ويعتبر اتساع الفتحة وحجم الإناء المقياس الذي تقاس به المدة الزمنية اللازمة لضبط حجم الجريان أثناء توزيع المياه.

[٤١] محمد المختار السوسي، المعسول ج ٢٠ الدار البيضاء ١٩٩١ ص ١٥٢.

تحدد زمنيا من طلوع الشمس إلى غروبها أو من الغروب إلى طلوع الشمس مدتها تطول أو تقصر حسب الفصول و تقاس زمنيا ب ١٢ ساعة. أما تسيير الخطارات فهو جد مقنن بحيث يتكون من عدة أشخاص بشكل هرمي كالتالي :

- ✓ أمغار ن وامان : يعين من طرف أعيان القبيلة يعمل على أزرف القبيلة و ينظم تقسيم الحصص و يحل النزاعات المائية ...
- ✓ لجماعت : من أعيان القبيلة يحضرون اجتماعات "أمغار ن وامان" حين يعلن ذلك لتقييم و حل المشاكل.
- ✓ إعساسن : يقومون بدور الحراسة على الخطارات في حالة النزاعات .
- ✓ إمزراكَن : فلاحون أو خماسون يقومون بدور صيانة الخطارات.

IV. التراث المائي : الإشارات التاريخية و الأركيولوجية

تشير الأبحاث الأركيولوجية و من خلال تحرياتنا الميدانية الى تواجد بقايا عدة منشآت مائية قديمة مرتبطة بسقي حقول قصب السكر و بصناعته بمنطقة سوس خاصة بالمناطق المحادية لمدينة تارودانت. و ابتداء من سنة ١٩٥٢ تم التعرف بهذه المنطقة على عشرة معامل لقصب السكر من بينها معمل السكر أولاد مسعود المتواجد على الضفة اليسرى لواد سوس و معمل السكر تازمورت و إيميز(تازمورت II). وارتباطا بذلك استطاع P.Berthier سنة ١٩٦٦ القيام بدراسة أركيولوجية حول هذه المعامل تم من خلالها التعرف على نظام جلب المياه وتوزيعها[٤٢]. كما تم العثور على أدوات فخارية و أفران مرتبطة بصناعة السكر لكن دون العثور على أي نقيشة قد تساعد أكثر على فهم السياق التاريخي لهذه المنشآت الصناعية خلال الفترة السعدية التي من المؤكد أن ظهورها بالمنطقة قد يعود الى ما قبل هذه الفترة[٤٣].كما تطرقت هذه الدراسة عن تقنية توزيع المياه السطحية التي يوفرها واد سوس وكذلك رافده واد اصادص المنحدر من الأطلس الصغير. الدراسة شملت كذلك مصانع السكر بكل من منطقة الصويرة (واد القصوب) وشيشاوة و سيدي شيكر[٤٤].

تحرياتنا الميدانية لمعامل السكر أولاد مسعود مكنتنا من الوقوف على عدة بقايا أثرية من بينها بقايا صهاريج ذات أحجام مختلفة مخصصة لتخزين و لتجميع المياه مبنية بالتراب المدكوك وبلاط من الجير مخلوط بالطين و الحصى و هي مواد كان يتم استخراجها من عين المكان. اما علوها فيتراوح بين ٠,٨٠ متر و ١ متر. كما تم رصد أنشطة حفريات قديمة منتشرة هنا و هناك قد تعود لتلك التي قام بها بول بيختيي هناك سنة ١٩٥٨. هذه التحريات مكنتنا

[42]Berthier Paul, Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Rabat : Centre Universitaire de la Recherche Scientifique, 1966

[43]Berthier Paul, L'archéologie, source de l'histoire économique. Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc, in Hespéris Tamuda, T. VII, p. 38, 1966.

[٤٤] يوجد معمل السكر سيدي شيكر بالقرب من رباط شاكر شمال وادي تانسيفت، على بعد حوالي ٤ كلم من المركز، في اتجاه الطريق الجهوية ٢٠٤، بالمكان المعروف بدار الباهية. و هو يتكون من مجموعة من الوحدات لا زالت بقاياها متواجدة، رغم ما تعرضت له من إتلاف، بفعل عوائد الزمن والتدخل البشري .وقد كان يجلب اليها المياه من خزان تحويلي أحدث لهذا الغرض على وادي تانسيفت من قبل السعديين في القرن ١٦م، عبر ساقية الهروسية.

كذلك من التعرف على عدة سواقي أخرى ثانوية تنحدر في اتجاه الجنوب الغربي نذكر منها على الخصوص ساقية واد اصادص و ساقية العزوزية التي كانت تحمل مياه السقي الى الحقول و المزارع المجاورة في المنطقة.

لوحة ٥: بقايا أثرية بموقع تازمورت ٢ (المصدر العربي بروان)

بالنسبة لمعامل السكر تازمرت، فهي لا تختلف كثيرا عن معامل أولاد مسعود لكن ما يميز هذه المنطقة هو تواجد بقايا أثرية مهمة فوق قمة أحد الجبال المجارة لم يسبق الإشارة اليها في الدراسات السابقة. و يتعلق الأمر حسب الرواية الشفهية بالنواة الأولى لدوار تازمورت القديم. و قد وصفه المختار السوسي حيث قال " قرية تازمورت كبيرة، ولمسجدها مقام في بعث العلوم، وقد كانت القرية فوق مكانها الحالي بالجبل، قبل أن يستقر قرار السكان في مستقرهم الحالي، وفيها عين ماء خرارة (رأس العين) خرجت من وسط الديار ومرت بالمسجد، ثم خرجت بعيدا من القرية، فكان سقيها مجموعة سوداء من حقول الذرة و فيها آلاف من أشجار الزيتون، كما أن إزاء ذلك بياضا لا غرس فيه، تركه أصحابه للزراعة فقط"[٤٥]. تتكون هذه البقايا الأثرية التي أشار إليها المختار السوسي من مجموعة من البنايات المتهدمة مبنية بالحجارة و التراب المدكوك. كما مكنتنا تحرياتنا الميدانية من العثور على مجموعة من قنوات قديمة مرتبطة بشبكة من الخطارات و العيون و المطفيات من المحتمل أن تكون هذه القنوات جزء لأحد فروع الشبكة الهيدروليكية القديمة التي كانت تستعمل لجلب المياه إلى معامل السكر هناك و لسقي الحقول و تزويد ساكنة الدوار بالماء. حسب تحرياتنا ألميدانية، هذه الشبكة قد تكون امتدادا لتلك المتواجدة بمنطقة تيوت التي تقع على مقربة من مركز تازمورت.

[٤٥] محمد المختار السوس، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٤.

لوحة ٦ : بقايا لمباني متهدمة لدوار تازمورت القديم (المصدر العربي بروان)

و تعتبر واحة تيوت واحدة من بين أقدم المراكز التاريخية بسوس، وواحدة من بين الحواضر التي لعبت أدوار ريادية في تاريخ سوس والجنوب المغربي عامة، فقد فاقت شهرتها حدود سوس و تارودانت و خصوصا إبان الحكم السعدي في القرن السادس عشر الميلادي، حيث برز دورها كأرض للزراعة وإنتاج السكر، ومركز مرتبط بأهم المدن التجارية بالمغرب آنذاك، وكذا ممر تجاري متصل بدول إفريقيا جنوب الصحراء عبر تجارة القوافل، بل ظلت تيوت مركزا للسلطة والقيادة حتى أواسط القرن العشرين. كما أنها مقصدا للعلماء والفقهاء والصلحاء، ، ما يبرز أهميتها الاجتماعية و الاقتصادية. فقد وصفها الحسن الوزان بأنها "مدينة عريقة بضواحي تارودانت معددا مميزاتها الجغرافية الطبيعية، وخصائصها الاقتصادية والتجارية فيقول : " تيوت مدينة قديمة أسسها الأفارقة في سهل بديع ... ويمر بالقرب منها نهر سوس، وتنتج هذه الأرض كمية عظيمة من القمح والشعير وغير ذلك من الحبوب والخضر، وينبت فيها أيضا قصب السكر بكثرة ... ويقصد تيوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر... وفيها أيضا كمية عظيمة من التمر.."[٤٦].

بناء على المعطيات الميدانية، فقد إتضح لنا أن المناطق ذات الإحتمالية العالية في تواجد بقايا أركيولوجية مرتبطة بمعامل السكر القديمة و السواقي بمجال الدراسة هي التي تتقاطع فيها التربة الرسوبية الخصبة و القريبة من القنواة المائية القديمة و كذلك المتواجدة بالقرب من المسالك و الطرق المؤدية الى المراكز التجارية هناك مثل تارودانت و إيكلي و تيدسي. و هذا يؤكد أن المنشآت المائية لمعامل السكر و السواقي القديمة لم توضع عشوائياً، بل

[٤٦] الحس الوزان المصدر السابق، ص ٨٥.

في نقاط "الانكسار الطبوغرافي" التي تسمح بجر المياه بقوة دفع كافية لتحريك المطاحن المائية. و إجمالا فإن هذه الإحتمالية المكانية (Archaeological Probability Model) تهم المناطق التالية:

١. إحتمالية مرتفعة جدا : محور تارودانت - تازمورت - أولاد مسعود. وجود بقايا "قواديس" فخارية قريبة من فروع وادي سوس المندثرة مع وجود ترسبات كربونية؛
٢. إحتمالية مرتفعة: و يتعلق الأمر بهوامش وادي سوس (شمال تارودانت) حيث تشمل مناطق طمر رسوبي كثيفة تخفي آثار قنوات ري قديمة تعود الى القرن ١٦؛
٣. إحتمالية متوسطة: منطقة تيدسي وإيكلي و هي مراكز استيطان قديمة مرتبطة بالزراعة المبكرة قبل التوسع السعدي؛
٤. مناطق تعرية نشطة : تنتشر خاصة بسفوح الأطلس (الحافة الشمالية) ، تُستخدم كمنابع للمياه.
٥. الطرق المفقودة: و هي ممرات غير طبيعية تربط معامل السكر بمدينة تارودانت، وهي بقايا مسارات النقل اللوجستي القديم (انظر اللوحة أسفله).

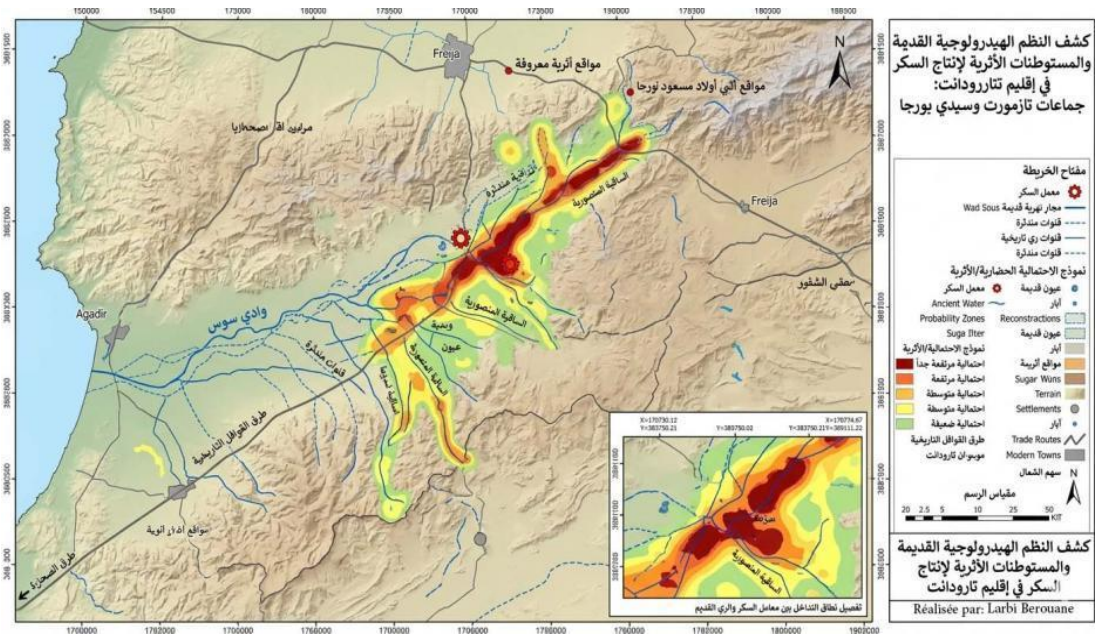

لوحة ٧: خريطة الاحتمالية المكانية لكشف النظام الهيدرلوجي القديم بمنطقة الدراسة (المصدر تحرياتنا الميدانية)

خاتمة

من خلال المصادر و الأبحاث التاريخية التي تمكنا من الاستعانة بها لإنجاز هذه الدراسة اتضح لنا أن منطقة سهل سوس تزخر بتراث مائي غني و متنوع. و يشهد على ذلك البقايا الأثرية التي لا تزال قائمة الى اليوم و التي تمكنا من الوقوف على بعضها من خلال تحريات الميدانية. بفضل هذه المنشآت المائية تمكن الساكنة من جلب المياه عبر وادي سوس و استغلالها عن طريق استعمال تقنيات مختلفة في سقي حقولهم و توريد مواشيهم. و قد ازدادت اهميتها مع ازدهار حقول قصب السكر و وبناء معامل السكر بالمنطقة خلال فترة الحكم السعدي. و سخر من أجل ذلك بناء القناطر على الأودية و مد السواقي و حفر الخطارات و إستنباط العيون لتصلها بالمياه التي تستعمل قوتها في إدارة المراوح و الأرحية.

فإذا مكنتنا المصادر التاريخية من الاستدلال بمجموعة من الإشارات حول أهمية هذه المنشآت المائية، فإن التحريات الميدانية سمحت لنا كذلك بالوقوف على مدى توافق بقايا هذه المنشآت مع هذه الكتابات التاريخية. كما مكنتنا من توثيق التدخلات السابقة عن طريق إنجاز خرائط و رسومات معمارية. فالتوثيق ليس إجراء شكليا، بل مرجع علمي دائم يحمي الأثر ويدعم أي تدخل لاحق.

و نظراً للقيمة التاريخية لهذا الموروث الثقافي، الذي كان موضوعاً لظهائر و رسائل سلطانية منذ العصر السعدي وصولاً إلى صدر الدولة العلوية، فإن الحفاظ عليه و حمايته يتطلب تظافر كل الجهود لإعادة الاعتبار لها و تثمينها. فرغم الأهمية التي تكتسيها هذه البقايا، فإنها تعاني من الإهمال و الاندثار بسبب عوامل طبيعية و بشرية. لذلك فإن هذه الدراسة هي بمثابة قراءة علمية للمعطيات التاريخية و الأركيولوجية و كذلك للمكونات المعمارية لهذه المواقع الأثرية قد يتم الاعتماد عليها في أي تدخل لترميمها.

بيبليوغرافيا

إبن حوقل النصيبي أبو القاسم(ت. ٣٦٧ ه)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،١٩٩٦ م.ص ٩١.

إبن خلدون: تاريخ ابن خلدون " العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، طبعة اولى، بيروت ١٩٩٢، ج ١، ص ٣٧١.

إبن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق محمد زنيبر و آخرون، طبعة بيروت ١٩٨٥. دار الغرب الاسلامي (٨/٥٩٤.

أحمد زروال ، " الخطارة" معلة المغرب ، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ج ١١، ص: ٣٧٦٩-٣٧٧٣، ص: ٣٧٦٩.

الإدريسي، ابو عبد الله محمد (الشريف الإدريسي) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ١٠٨، تحقيق جماعي تحت اشراف المعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابولي ، ١٩٧٠- ١٩٨٤، نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

البكري أبي عبيد(ت. ٤٨٧ ه)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ.ص١٦١

الحسن المحداد، "الماء والإنسان بحوض سوس إسهام في دراسة نظام مائي مغربي".مطبعة المعارف الجديدة/ط ألأولى ٢٠٠٣.

الحسين باحسين، أنظمة السقي بالجنوب المغربي، ص ١٩٩ ط ٢٠١٨ منشورات مركز أكلو للبحث والتوثيق

عبد الحفيظ برابر، "التدبير المائي والتهيئة بحوض سوس، توجهاته، مجالاته، مع دراسة نموذج قطاع الكردان الفلاحي". بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس٢٠٠٠ .

عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء، تحقيق كنون.

العياشي كركر، "الماء والتحولات السوسيومجالية بسوس الأوسط نموذج قطاع الكردان". بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة ٢٠٠٧.

القاضي عياض، مذاهب الحكام في نوازل ألأحكام، تقديم و تعليق الدكتور محمد بن شريفة، دار الغرب ألإسلامي، لبنان، بيروت ١٩٩٠، الطبعة الأولى ص ١٠٩.

مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة و المدينة و مصر و بلاد المغرب، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥ص ٢١٢.

محمد المختار السوسي، المعسول ج ٢٠ الدار البيضاء ١٩٩١ ص ١٥٢.

محمد بوشلخة، "أرياف سوس ماسة التحولات الحديثة والديناميات السوسيومجالية". منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر اكادير. المطبعة والوراقة الوطنية مراكش/ط الأولى٢٠٠٧.

محمد الجغاوي، "الماء والتنمية الفلاحية بعالية سهل سوس حال قطاع المحازم (تارودانت)" بحث لنيل شهادة الماستر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس٢٠١١ .

المختار السوسي، خلال جزولة ، ج ٤، دار الكتب العلمية، ٢٠١٥، ص ١٥٢.

المراكشي، محييي الدين محمد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق و تعليف محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي. طبعة الدار البيضاء ١٩٧٨ (ط ٧), ص.١١٢.

الوزان الفاسي الحسن بن محمد،وصف إفريقيا، ج ٢، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م. ص ٨٩.

الونشريسى آبي العباس أحمد بن يحي)ت. ٩١٤ هـ(، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨١،ج ٨ ،ص ٤٠٢.

Berthier Paul, « L'aqueduc de l'oued Ouaar et le bassin des Gaba à Taroudant » *in Hespéris-Tamuda* IV (1963): 193-213. P.١٨٦.

Berthier Paul, « l'archéologie, source de l'histoire économique. Les plantations de canne à sucre et les fabriques de sucre dans l'ancien Maroc» *in Hespéris Tamuda*, T. VII, p. 36, 1966

Berthier Paul, *Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques*, Rabat : Centre Universitaire de la Recherche Scientifique, 1966

Berthier, P., et Berthe. J.P., « Sur l'histoire sucrière américaine ». *Annales Economies, Sociétés, Civilisations*, Paris, 1959, p.135-141.

Boujnikh, M. *Évolution des paysages irrigués dans le Souss Oriental (Maroc).* Thèse de doctorat en géographie non publiée, Université Nancy 2, Nancy, 2008.

Castries Henry Comte de, *Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc*. Première série – Dynastie Saâdienne. Archives et Bibliothèques d'Angleterre. T. I, Paris et Londres : Luzac & Cie, 1918.

Humbert, A., «Archéologie d'un système hydraulique, Eau, environnement et histoire des paysages dans le Souss », *In Actes du colloque de Taroudant*, CDR, novembre 2000.

Ait-Hamza, M., « Le système traditionnel d'irrigation et l'organisation de l'espace au sud du Maroc, cas du bassin de Dadès », *Revue de la Faculté des Lettres* (en arabe), n°13, Rabat, 1987, p. 133-152.